﴿ شُعَيْبٌ عليه السّلام يدعو مدين
إلى عبادة ربّها وقد كفرت ربّها
فَبُعْداً لها كما بَعِدَتْ ثمود ﴾
الآيات (٨٤ ـ ٩٥)

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم
مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي
أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ
﴿٨٤﴾ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ
وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ
مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ
وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾

وإلى مدين أخاهم شعيباً : وأرسلنا إلى ولد مدين أخاهم شعيباً[١] ومدين تطلق على القبيلة وعلى المدينة وهي التي بقرب معان من طريق الحجاز[٢] وهم قبيلةٌ من العرب كانوا يسكنون بين الحجاز والشّام[٣] فأرسل الله إليهم شعيباً وكان من أشرفهم نسباً ولهذا قال : أخاهم شعيباً[٤] وشعيبٌ عليه السّلام يقال له خطيب الأنبياء لفصاحة عبارته وجزالة موعظته[٥] .

بالقسط : بالعدل[٦] .

ولا تبخسوا النّاس أشياءهم : ولا تنقصوا النّاس حقوقهم التي يجب عليكم أن توفوهم كيلاً أو وزناً أو غير ذلك[٧] .

ولا تعثوا في الأرض مفسدين : ولا تسيروا في الأرض تعملون فيها بمعاصي الله[٨] والعَيْث

---

(١) تفسير الطّبريّ ٦٠/١٢ .
(٢) تفسير ابن كثير ٢٣١/٢ .
(٣) تفسير ابن كثير ٤٥٥/٢ .
(٤) تفسير ابن كثير ٤٥٥/٢ .
(٥) تفسير ابن كثير ٢٣١/٢ .
(٦) تفسير الطّبريّ ٦٠/١٢ .
(٧) تفسير الطّبريّ ٦١/١٢ .
(٨) تفسير الطّبريّ ٦١/١٢ .

والعِثِيّ يتقاربان نحو جذب وجبذ إلّا أنّ العيث أكثر ما يقال في الفساد الذي يُدْرَك حَسّاً ، والعِثِيّ فيما يُدْرَك حُكْماً . يقال : عَثِيَ يَعْثي عِثِيّاً . وعلى هذا : ولا تَعْثَوْا في الأرض مفسدين . وعثا يَعْثُوا عُثُوّاً[1] .

بقيّة الله خيرٌ لكم : ما أبقاه الله لكم بعد أن توفوا النّاس حقوقهم بالمكيال والميزان بالقسط فأحلّه لكم خيرٌ لكم من الذي يبقى لكم ببخسكم النّاس من حقوقهم بالمكيال والميزان[2] .

تبيّن الآية الكريمة الأولى أنّ الله سبحانه وتعالى أرسل إلى قبيلة مدين بالقرب من معان بين الحجاز والشّام أخاهم شعيباً عليه السّلام فقد كان من أشرافهم . وأسوةً بغيره من النّبيّين دعاهم إلى إفراد الله تعالى بالعبادة وإلى توحيده جلّ وعلا . ولمّا كان قد انتشر بينهم داء التطفيف في الكيل والوزن فإنّ شعيباً عليه السّلام الذي يلقّب بخطيب الأنبياء لفصاحته دعاهم إلى التّخلّي عن هذه الخصلة السّيّئة وإلى التّحلّي بوفاء الكيل والوزن والصّدق في البيع والشّراء والتّعامل . إنّه عليه الصّلاة والسّلام ينهاهم أوّلاً عن نقص المكيال والميزان حال البيع ، وفي المقابل هم في حال الشّراء يوفون المكيال والميزان . وهذا معناه أنّهم يكيلون بمكيالين ويزنون بميزانين ، وليس هذا من العدل في شيء ، بل هو عين الظّلم . ويبيّن لهم شعيبٌ عليه السّلام أنّه عليه الصّلاة والسّلام يراهم بخيرٍ من الله تعالى ونعمة فلماذا يأكلون أموال النّاس بالباطل ولماذا الحرص على المزيد عن طريق الحرام وليس عن طريق الحلال ولهذا هو يخاف عليهم عذاب يومٍ محيط هو يوم القيامة ، هذا إلى عذاب الدّنيا بين يدي عذاب ذلك اليوم العصيب . ويلاحظ استعمال شعيبٍ عليه السّلام هذا النّداء اللّطيف : ﴿ يا قوم ﴾ ستّ مرّات .

وفي الآية الكريمة الثّانية يؤكّد شعيبٌ عليه السّلام نهيه السّابق عن التّطفيف بالأمر بإيفاء المكيال والميزان بالعدل . إنّ التطفيف ظلمٌ وقد ذهب . وإنّ الإيفاء عدلٌ وقد حلّ . ويؤكّد عليه السّلام النّهي عن التّطفيف والأمر بالإيفاء بنهي قومه عن بخس النّاس أشياءهم ، ونقصهم حقوقهم التي يجب عليهم أن يوفوهم إيّاها كيلاً ووزناً ومعاملة . وواضحٌ أنّ التّطفيف في الكيل والوزن جزءٌ من نقص النّاس حقوقهم وبخسهم أشياءهم . وكأنّ ثمّة تدرّجاً وتحوّلاً من الدّائرة الصّغرى إلى الدّائرة الأكبر منها . وكان هذان النّوعان من التّدرّج توطئة

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « عثى » ٣٢٢ .

(٢) تفسير الطّبريّ ٦١/١٢ .

للتحوّل إلى الدّائرة الكبرى بنهي شعيبٍ عليه السّلام قومه أن يعيثوا في أرض الله تعالى الواسعة فساداً وقد أراد الله تعالى صلاحها . إنّ عليهم أن يصلحوا في الأرض لا أن يفسدوا فيها بعد إصلاحها .

وفي الآية الكريمة الثّالثة يبيّن شعيبٌ عليه السّلام لقومه حقيقة البركة التي يضعها الله تعالى في الرّزق الحلال وإن كان قليلاً في ظاهره ، وفي ذلك نهيٌ ضمنيّ عن الحرام وإن كان كثيراً في ظاهره فإنّه خبيثٌ ولا بركة فيه . إنّ شعيباً عليه السّلام يبيّن لقومه إنّ ما أبقاه الله تعالى لهم من الرّزق الحلال والكسب الطّيّب بعد إيتاء كلّ ذي حقّ حقّه خيرٌ لهم من الكسب الخبيث وإن أعجب العين كثرته . هذه هي الحقيقة التي ينبغي على المؤمن أن يعيها ويستمسك بها . أمّا غير المؤمن فإنّه يعجبه كثرة الخبيث ويضعف أمام إغراءاته والعياذ بالله . ولمّا كانت مهمّة الرّسل تقف عند هداية الدّلالة والإرشاد ولا تتعدّاها فقد بيّن عليه السّلام لقومه هذه الحقيقة في القول : ﴿ وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ والمعنى أنّه عليه الصّلاة والسّلام ليس حفيظاً عليهم ولا رقيباً وليس عليه سوى البلاغ الذي لا يملك سواه .

ومن البيّن علاقة الآية الكريمة بهذه الآية الكريمة من سورة المائدة[1] قال تعالى : ﴿ قل لا يستوي الخبيث والطّيّب ولو أعجبك كثرة الخبيث فاتّقوا الله يا أولي الألباب لعلّكم تفلحون ﴾ .

قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ
آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ
الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾

على سبيل السّخرية والاستهزاء ، الاستفهام والإنكار ، يسأل شعيباً عليه الصّلاة والسّلام قومُه : أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا من الأصنام والأوثان ونعبد الله تعالى وحده ، أو أن نترك أن نفعل في أموالنا ما نشاء من تطفيفٍ في الكيل والوزن حال البيع واستيفاءٍ للكيل والوزن حال الشّراء . إنّك يا شعيب لأنت الحليم الشديد الأناة ، الرّشيد ذو العقل الرّاجح ، تدعونا إلى هجر الشّرك وترك التّطفيف واعتناق ما لا يعرف الآباء من توحيد وإيفاءٍ للكيل والوزن ! إلى أيّ الأشياء الأُخر كنت تدعونا لو لم تكن حليماً رشيداً ! وبطبيعة

---

(١) الآية ١٠٠ .

الحال إنّما يريد القوم أن يصفوا شعيباً عليه السّلام بالسّفه بدل الحلم وبقصور العقل بدل الرّشد : ﴿ كبرت كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلّا كذباً ﴾[1] .

ومن البيّن دور الصّلاة في النّهي عن الفحشاء والمنكر ، والعجيب في القوم أنّهم يصرّون على ارتكاب كلّ فحشاء ، وعلى إتيان كلّ منكر .

قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾

في الآية الكريمة السّابقة عبّر قوم شعيبٍ عليه السّلام عن عدم رضاهم عن دعوته لهم إلى توحيد الله تعالى ونهيه لهم عن أكل أموال النّاس بالباطل عن طريق التّطفيف والبخس وما إليهما . وفي هذه الآية الكريمة التّالية يبيّن عليه السّلام لقومه واجبه تجاه كلٍّ من هذين الأمرين وائتمان الله تعالى له أن يبلّغ الرّسالة ويؤدّي الأمانة . إنّه عليه الصّلاة والسّلام يقول لقومه أرأيتم إن كنت على بيانٍ من ربّي جلّ وعلا وهدى ، على نورٍ وبصيرة ، أليس من واجبي أن أوقفكم على البيّنة التي وصلتني من ربّي جلّ وعلا ، وأن أوصل إليكم الهدى الذي أمرني الله تعالى بتبليغكم إيّاه وإيصاله لكم ! ومن البيّن علاقة هذا القول بقضيّة التّوحيد . أمّا القول على لسانه الذي له علاقةٌ بالنّهي عن أكل أموال النّاس بالباطل فإنّه : ﴿ ورزقني منه رزقاً حسناً ﴾ والمعنى : أرأيتم إن رزقني ربّي جلّ وعلا منه رزقاً حسناً وأرشدني إلى الطّريق القويم الذي أسلك في سبيل الحصول على الرّزق الحلال والكسب الطّيّب . أليس من واجبي أن أرشدكم بدوري إلى هذا الصّراط المستقيم الذي أمرني الله تعالى بإرشادكم إليه ! إنّه عليه الصّلاة والسّلام يحبّ لهم الخير الذي يحبّه لنفسه . إنّ ربّه جلّ وعلا هداه إلى التّوحيد وهو يدعوهم إليه . وإنّ ربّه جلّ وعلا رزقه رزقاً حسناً وهو يدعوهم إليه . أليس هذا هو العمل المنطقيّ والتّصرّف السّليم ؟ وأنا لا أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه فإنّ ظاهري كباطني وقولي كفعلي ، وفعلي يعكس نيّتي وقولي ولكنّكم تريدون منّي عكس ما أقول أو أفعل .

---

(١) سورة الكهف ٥ .

إنّي ما أريد بدعوتكم إلى الله تعالى وإلى الكسب الحلال إلّا الإصلاح ما استطعت . وما توفيق في الوصول إلى هذه الغاية الحميدة إلّا بالله تعالى وحده لا شريك له . عليه توكّلت في كلّ شئوني وإليه أنيب وأرجع في الحال والمآل .

﴿ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ ﴾

ويا قوم لا يجرمنّكم شقاقي : لا يحملنّكم عداوتي وبغضي وفراق الدّين الذي أنا عليه[1] .

وما قوم لوطٍ منكم ببعيد : قيل المراد في الزّمان ، قال قتادة : يعني إنّما هلكوا بين أيديكم بالأمس . وقيل في المكان ويحتمل الأمران[2] .

يكرّر شعيبٌ عليه السّلام ذو الخلق العظيم النداء : ﴿ يا قوم ﴾ وينهاهم عليه السّلام أن يحملهم خلافه وفراق دينه وخصامه وعداوتهم له عليه الصّلاة والسّلام أن يصرّوا على الكفر وعلى الصّدّ عن سبيل الله تعالى فيصيبهم من العذاب ما أصاب قوم نوحٍ وهودٍ وصالحٍ ولوطٍ عليهم جميعاً صلوات الله وسلامه .

ويلفت النّظر التّرتيب التّأريخيّ لكوكبة الرّسل الكرام نوح وهود وصالح عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين . إنّ نوحاً عليه السّلام أوّل رسل الله تعالى . وقد تحدّثت عنه السّورة الكريمة أوّلاً . وإنّ هوداً عليه السّلام يسبق صالحاً عليه السّلام زمناً . وقد تحدّثت السّورة الكريمة عن هذين الرّسولين الكريمين على التّوالي . وإنّ التّرتيب الزّمنيّ لهؤلاء الرّسل الكرام ، وإنّ القول على لسان شعيبٍ عليه السّلام لقومه في الآية الكريمة : ﴿ وما قوم لوطٍ منكم ببعيد ﴾ يحملنا من ناحيةٍ على الاعتقاد ــ والله تعالى أعلم ــ أنّ هذا القول على لسان شعيبٍ عليه السّلام : ﴿ وما قوم لوطٍ منكم ببعيد ﴾ ذو علاقةٍ بالزّمان الذي ترتبط به الآية الكريمة بأكثر من المكان ، وعليه يكون لوطٌ عليه السّلام يتأخّر زمناً عن صالحٍ عليه السّلام ، ويحملنا من ناحيةٍ أخرى على الفهم بأنّ شعيباً عليه السّلام آخر الرّسل المذكورين في الآية الكريمة زمناً .

---

(١) تفسير الطّبريّ ٦٣/١٢ .

(٢) تفسير ابن كثير ٤٥٧/٢ .

وبشأن لوطٍ عليه السّلام الذي يسبق شعيبا عليه السّلام زمناً هو ابن أخي إبراهيم عليه السّلام أبي الأنبياء . وكان لوطٌ عليه السّلام قد آمن مع إبراهيم عليه السّلام وهاجر معه إلى أرض الشّام فبعثه الله تعالى إلى أهل سدوم وما حولها من القرى[1] .

وبشأن إبراهيم عليه السّلام يحدّد التاريخ عصره عليه السّلام على وجه التّقريب حوالي ١٨٥٠ ـ ١٨٠٠ قبل ميلاد المسيح عيسى عليه السّلام[2] .

إنّ لوطاً عليه السّلام معاصرٌ لإبراهيم عليه السّلام ، وإنّ قرب شعيبٍ عليه السّلام زمناً من لوطٍ عليه السّلام معناه قربه زمناً من إبراهيم عليه السّلام . وكلّ ذلك معناه بُعد زمن شعيبٍ عليه السّلام عن زمن خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين محمّد بن عبد الله ﷺ الذي أوحى الله تعالى إليه هذا الكتاب العزيز المتضمّن قصص الأنبياء السّابقين لتثبيت فؤاده ﷺ على نحو ما بيّنت هذه السّورة الكريمة في نهايتها . فسبحان الله الذي لا إله إلّا هو والذي لا يعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء .

وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾

ودود : الودّ محبّةُ الشّيء وتمنّي كونه . ويُستَعْمَل في كلّ واحدٍ من المعنيين . ولفظ الودود هنا متعلّقٌ بالمودّة التي تقتضي المودّة المجرّدة[3] .

يأمر شعيبٌ عليه الصّلاة والسّلام قومه بالاستغفار وبالتّوبة وذلك على غرار الأمر في السّورة الكريمة في الآية الكريمة الثّالثة ، ثمّ في الآية الكريمة الثّانية والخمسين على لسان هودٍ عليه السّلام .

والذي يلفت النّظر استعمال لفظ الرّبّ في حقّ كلّ من قوم شعيب وشعيب عليه السّلام : ﴿ ربّكم ﴾ : ﴿ إنّ ربّي ﴾ وبشأن قوم شعيب يُفْهَم من القول : ﴿ واستغفروا ﴾ أنّ الله تعالى هو الغفّار . ومن القول : ﴿ ثمّ توبوا ﴾ أنّ الله تعالى هو التّوّاب . فثمّة صفتان للذّات العليّة هنا وذلك في مقابل الصّفتين بعد ذلك : ﴿ رحيمٌ ودود ﴾ وكأنّ صفة الرّحمة متمّمة للمغفرة ، فلأنّ الله تعالى رحيمٌ يغفر الذّنب . وكأنّ صفة الودّ متمّمة للتّوبة ، فلأنّ الله تعالى ودودٌ يقبل التّوب . وقد عرفنا أنّ الاستغفار إذا تعلّق بالذّنوب السّالفة فإنّ التّوبة تتعلّق بالذّنوب اللّاحقة . إنّ الرّبّ الودود هو الذي يقبل التّوب جلّ وعلا .

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٢٣٠ .

(٢) انظر مثلاً القرآن الكريم والتّوراة والإنجيل والعلم موريس بوكاي ١١٣ .

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « ودد » ٥١٦ .

قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا
ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ۖ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾

شعيبٌ عليه السّلام كان يقال له خطيب الأنبياء[1] لفصاحته . وإنّ قومه عليه السّلام ينادونه عليه الصّلاة والسّلام باسمه : ﴿ يا شعيب ﴾ دليلاً على سوء أدبهم من ناحية ، ثمّ إنّهم ليقولون لخطيب الأنبياء ﷺ : ﴿ ما نفقه كثيراً ممّا تقول ﴾ دليلاً على كبرهم وغطرستهم من ناحيةٍ أخرى . إنّهم يزعمون أنّهم لا يفهمون كثيراً مما يقول عليه الصّلاة والسّلام بلسانه ، وإنّهم ، تأكيداً للكبر في نفوسهم ، يقولون له عليه الصّلاة والسّلام : إنّا لنراك فينا ضعيفاً ذليلاً حقيراً ولولا رهطك ومنزلة قومك في نفوسنا لرجمناك بالحجارة حتّى الموت ، وما أنت يا شعيب علينا بعزيز ولكنّك رخيصٌ وحقير : ﴿ كبرت كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلّا كذباً ﴾ .

قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ ۖ وَاتَّخَذْتُمُوهُ
وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾
وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ۖ سَوْفَ
تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ
كَاذِبٌ ۖ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾

وراءكم ظهرياً : نبذتموه خلفكم لا تطيعونه ولا تعظّمونه[2] .

اعملوا على مكانتكم إنّي عامل : اعملوا على طريقتكم إنّي عامل على طريقتي . وهذا تهديدٌ شديد[3] .

في الآية الكريمة الأولى ، وفي مظهرٍ من مظاهر حسن الخلق الذي يتّسم به رسل الله تعالى يقول شعيب عليه السّلام : ﴿ يا قوم ﴾ وفي أسلوب الاستفهام الإنكاريّ يسألهم

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٤٥٧ .
(٢) تفسير ابن كثير ٢/٤٥٨ .
(٣) انظر تفسير ابن كثير ٢/٤٥٨ .

أرهطي وعشيرتي أعزّ عليكم من الله تعالى ، واتّخذتموه جلّ وعلا وراءكم ظهريّاً ، وعصيتم أوامره وأتيتم نواهيه . إنّ ربّي جلّ وعلا بما تعملون محيط فلا يخفى عليه جلّ وعلا شيءٌ في الأرض ولا في السّماء .

وتبدأ الآية الكريمة الأخرى بالقول : ﴿ ويا قوم ﴾ ويأمر شعيبٌ عليه السّلام قومه أنْ يعملوا على طريقتهم وحالهم فإنه عليه الصّلاة والسّلام عاملٌ على طريقته وحاله ، وذلك بقصد التّعبير عن منتهى السّخط عليهم وعدم الرّضا عنهم . ويهدّدهم بيوم القيامة الذي سوف يعلمون فيه من يأتيه عذاب من الله تعالى يخزيه ومن هو كاذب . أمّا الذين يأتيهم العذاب فإنّهم الكافرون . والمراد بالقول : ﴿ ومن هو كاذبٌ ﴾ نفي الكذب عنه عليه الصّلاة والسّلام وإثبات الصّدق . ولمّا كان الطّرفان يتقاسمان المسئولية فإنّ الآية الكريمة في القول : ﴿ فارتقبوا إنّي معكم رقيب ﴾ تأمر الكافرين بتربّص العذاب ، أمّا المؤمنون فإنّهم ينتظرون رحمة الله تعالى الواسعة أن تشملهم .

وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾

لمّا جاء أمر الله تعالى بهلاك الكافرين نجّى الله تعالى شعيباً عليه السّلام والذين آمنوا معه برحمةٍ منه جلّ وعلا وأخذت الذين ظلموا الصّيحة من السّماء ، وقيل إنّ جبريل عليه السّلام صاح بهم[1] فأصبحوا في ديارهم جاثمين على ركبهم ميّتين كأنّهم لم يعيشوا فيها من قبل . وكما أبعد الله تعالى ثمود من رحمته أبعد مدين بسبب تكذيبهم شعيباً عليه السّلام .

ومن البيّن انتهاء الآية الكريمة بفاصلة الدّال : ﴿ ثمود ﴾ وهي فاصلة تتردّد في هذه السّورة كثيراً . وسبق أن عرفنا أنّ الذين يسبقون مدين زمناً هم قوم لوط وأنّ قوم صالحٍ عليه السّلام يسبقون قوم لوطٍ عليه السّلام زمناً . فما هو الرّباط المعنويّ بين مدين وثمود وراء الحلية الصّوتيّة بمجيء حرف الدّال فاصلة . أمّا الرّباط المعنويّ فهو أنّ كلًّا من القومين أهلكه الله

(١) تفسير الطّبريّ ١٢/٦٥ .

تعالى بالصّيحة . جاء هنا القول عن مدين : ﴿ وأخذت الذين ظلموا الصّيحة ﴾ وجاء في الآية الكريمة السّابعة والسّتين عن ثمود القول : ﴿ وأخذ الذين ظلموا الصّيحةُ فأصبحوا في ديارهم جاثمين ﴾ .

وإليك ما يقول ابن كثير[1] رحمه الله تعالى رحمةً واسعةً عن الحكمة في اختلاف التّعبير عن الأمّة الواحدة في سور القرآن : « وذكر ههنا أنّه أتتهم صيحة ، وفي الأعراف رجفة ، وفي الشّعراء عذاب يوم الظّلّة . وهم أمّةٌ واحدة اجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النّقم كلّها . وإنّما ذكر في كلّ سياقٍ ما يناسبه . ففي الأعراف لمّا قالوا : لنخرجنّك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا ، ناسب أن يذكر هناك الرّجفة فرجفت بهم الأرض التي ظلموا بها وأرادوا إخراج نبيّهم منها . وههنا لمّا أساءوا الأدب في مقالتهم على نبيّهم ذكر الصّيحة التي أسكتتهم[2] وأخمدتهم . وفي الشّعراء لمّا قالوا : فأسقط علينا كسفاً من السّماء إن كنت من الصّادقين ، قال : فأخذهم عذاب يوم الظّلّة إنّه كان عذاب يوم عظيم . وهذا من الأسرار الدّقيقة . ولله الحمد والمنّة كثيراً دائماً » .

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٤٥٨ .

(٢) تصويب هذه الجملة من طبعة كتاب الشّعب ٤/٢٧٧ .

« موسى عليه السّلام يدعو فرعون وملأه
إلى عبادة الله تعالى فيكفرون فيلعنهم
الله تعالى في الأولى والآخرة »
الآيات (٩٦ ـ ٩٩)

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾

ولقد أرسلنا موسى بآياتنا : بأدلّتنا على توحيدنا[1] .

وسلطان مبين : وحجّة تبيّن لمن عاينها وتأمّلها بقلبٍ صحيحٍ أنّها تدلّ على توحيد الله[2] .

فاتّبعوا أمر فرعون : أي منهجه ومسلكه وطريقته في الغيّ[3] .

وما أمر فرعون برشيد : أي ليس فيه رشدٌ ولا هدى ، وإنّما هو جهلٌ وضلالٌ وكفرٌ وعناد[4] .

أرسل الله تعالى موسى عليه السّلام كبير أنبياء بني إسرائيل بآياته البيّنات ،ووحججه الباهرات الدّالّات على توحيد الله تعالى ، إلى فرعون مصر الطّاغية الذي ادّعى الرّبوبيّة وإلى ملئه وكبار قومه الذين اتّبعوا أمر فرعون غير السّديد وغير الرّشيد . وعدد آيات موسى عليه السّلام المادّيّة تسع إضافةً إلى التّوراة . وقد جاء النّصّ على عدد هذه الآيات في مثل قوله تعالى من سورة الإسراء[5] : ﴿ ولقد آتينا موسى تسع آياتٍ بيّناتٍ فاسأل بني إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إنّي لأظنّك يا موسى مسحورا ﴾ وهذه الآيات التّسع هي العصا واليد والسّنون ونقص الثّمرات والطّوفان والجراد والقمّل والضفادع والدّم . وقد جاء ذكر هذه الآيات التّسع في الآيات الكريمات من سورة الأعراف (١٠٧ و ١٠٨ و ١٣٠ و ١٣٣) ومن الآيات الكريمات التي بيّنت تعطيل قوم فرعون عقولهم فاستخفّهم وامتطى ظهورهم هذه الآيات الكريمات من سورة الزّخرف[6] . قال تعالى : ﴿ ونادى فرعون في قومه قال يا قومِ أليس لي مُلْك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون . أم أنا خيرٌ من هذا الذي هو مَهينٌ ولا يكاد يُبين . فلولا أُلْقِي عليه أَسْوِرةٌ من ذهبٍ أو جاء معه الملائكة مقترنين . فاستخفّ قومه فأطاعوه . إنّهم كانوا قوماً فاسقين . فلمّا آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين . فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين ﴾ .

---

(١) تفسير الطّبريّ ٦٦/١٢ .
(٢) تفسير الطّبريّ ٦٦/١٢ .
(٣) تفسير ابن كثير ٤٥٨/٢ .
(٤) تفسير ابن كثير ٤٥٨/٢ .
(٥) الآية ١٠١ .
(٦) الآيات ٥١ ـ ٥٦ .

يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾

يقدم قومه يوم القيامة : يقدم فرعون قومه يوم القيامة يقودهم فيمضي بهم إلى النّار حتّى يوردهموها ويصليهم سعيرها[١] .

وبئس الوِرْد المورود : الوِرد الماء المرشّح للورود ، والوِرد خلاف الصَّدَر ، والوِرد يوم الحُمَّى إذا وردت ، واستعمل في النّار على سبيل الفظاعة ، قال : فأوردهم النّار وبئس الوِرد المورود[٢] والورود أصله قَصْد الماء ثمّ يستعمل في غيره . يقال : وردت الماء أرد وروداً فأنا واردٌ والماء مورود[٣] .

إنّ فرعون الطّاغية الذي تقدّم قومه فاتّبعوه فقادهم في هذه الحياة الأولى إلى مهاوي الرّدى يتقدّم قومه يوم القيامة كذلك إلى النّار التي يردها فيتّبعونه ويردون معه النّار وبئس القرار . ويلاحظ مجيء هذا القول : ﴿ فأوردهم النّار ﴾ في صيغة الزّمن الماضي لتحقّق وقوع ذلك يوم القيامة فكأنّه قد تحقّق فعلاً . وكما يرد النّاس في جزيرة العرب المعروفة بحرّها وقلّة مائها أماكن المياه بحماسٍ ولهفةٍ شديدين يرد فرعون وملؤه النّار وكأنّهم يردون ماءً . وفرق بين الوردين أنّ في الدّنيا ماءً وفي الآخرة ناراً . وفرق بين الورودين أنّ وارد الماء يندفع ببواعثٍ داخليّ وأنّ وارد النّار يُدْفع إلى نار جهنّم دفعاً ، ولا يملك إلّا أن يطيع فيندفع وكأنّه يرد ماءً فُراتاً عذباً زلالاً .

وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾

بئس الرّفد المرفود : الرِّفد المعونة والعطيّة . وقد رَفَدْته أنلته بالرِّفد . قال تعالى : بئس الرّفد المرفود[٤] .

جاء في معنى الآية الكريمة قول الحقّ جلّ وعلا[٥] : ﴿ وأتبعناهم في هذه الدّنيا لعنةً

---

(١) تفسير الطّبريّ ١٢/٦٦ .
(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « ورد » ٥١٩ .
(٣) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « ورد » ٥١٩ .
(٤) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « رفد » ١٩٩ .
(٥) سورة القصص ٤٢ .

ويوم القيامة هم من المقبوحين ﴾ إنّ فرعون وملأه أتبعهم الله تعالى في الدّنيا لعنةً وطرداً من رحمته جلّ وعلا فأغرقهم في الماء ، وأتبعهم في الآخرة لعنةً أخرى فأحرقهم بالنّار .

وعلى غرار الاستهزاء بالقوم في الآية الكريمة السّابقة في القول : ﴿ وبئس الورد المورود ﴾ فكأنّ القوم يردون ماءً لا ناراً ، يتمّ الاستهزاء بالقوم في القول في هذه الآية الكريمة : ﴿ بئس الرّفد المرفود ﴾ إنّ الرّفد بمعنى العون والعطيّة والهبة التي يرفد بها الحبيب حبيبه ويعين بها الصّديق صديقه . إنّ فرعون وآله كان الرّفد في حقّهم في الأولى اللّعنة وفي الآخرة اللّعنة .

« وقوله : بئس الرّفد المرفود ، يقول : بئس العون المعان اللّعنة المزيدة فيها أخرى منها »[1] :

« الرّفد المرفود : العون المعين . رفدته أعنته »[2] .

---

(١) تفسير الطّبريّ ٦٧/١٢ .

(٢) صحيح البخاريّ ٩٣/٦ .

« عذاب الأشقياء في الأولى
والآخرة أليم ، ونعيم الأتقياء
في الأولى والآخرة مقيم »
الآيات (١٠٠ ـ ١٠٨)

ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾

وحصيد : ومنها حصيدٌ بنيانه خرابٌ متداعٍ قد تعفّى أثره دارس ، من قولهم : زرعٌ حصيد ، إذا كان قد استؤصل قطعه ، وإنّما هو محصود ، ولكنّه صُرِف إلى فعيل[1] وأصل الحصد قطع الزّرع[2] .

تبيّن الآية الكريمة أنّ ذلك القصص الذي ذكره الله تعالى في هذه السّورة الكريمة هو من أنباء القرى وأخبار أهلها الظّالمين الكافرين المكذّبين . وقد دمّر الله تعالى عليهم تدميراً . ومن هذه القرى ما هو قائمٌ آثاره كمدائن صالح بعد ذهاب أهله كأمس الدّابر ، ومن هذه القرى ما ذهبت آثاره بذهاب أهله ، فغدت تلك القرى التي اختفت كما اختفى أهلها أنباءً تُروى وأخباراً تُحكى . إنّ من تلك الآثار ما هو قائمٌ بعد ذهاب أهله كقيام بعض الجذوع من النّخيل والسّوق من الأشجار بعد موت ذلك النّخيل وتلك الأشجار ، ومن تلك الآثار ما حُصد حصداً ، وكأنّه الزّرع الذي حُصِد بالمناجل ، وكالهشيم الذي تذروه الرّياح .

وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾

وما زادوهم غير تتبيب : وما زادتهم آلهتهم عند مجيء أمر ربّك هؤلاء المشركين بعقاب الله غير تخسير وتدميرٍ وإهلاك[3] .

تبيّن الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى حينما أهلك أولئك الكافرين لم يظلمهم ولكن ظلموا أنفسهم بشركهم فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله تعالى من شيء ، وما نفعتهم ولا دفعت عنهم شيئاً من عذاب الله تعالى لمّا جاء أمر ربّك أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم بهلاكهم . إنّ أولئك المعبودين الزّائفين لم يزيدوا عابديهم غير خسرانٍ وهلاكٍ وبلاءٍ ولا شيء غير ذلك .

---

(١) تفسير الطّبريّ ٦٧/١٢ .

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « حصد » ١٢٠ .

(٣) تفسير الطّبريّ ٦٨/١٢ .

وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾

وكما أخذ الله تعالى بالعذاب أولئك الكافرين المكذّبين السّابقين يأخذ أهل القرى الظّالمين اللّاحقين مثل كفّار مكّة ومن شاكلهم . إنّ أخذ الله تعالى الظّالمين موجعٌ شديد الإيجاع[1] وعظيم .

في الصّحيحين عن أبي موسى الأشعريّ رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : إنّ الله لَيُمْلِي للظّالم حتّى إذا أخذه لم يفلته ، ثمّ قرأ رسول الله ﷺ : وكذلك أخذ ربّك إذا أخذ القرى وهي ظالمة . الآية[2] .

إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾

إنّ في ذلك لآية : لعبرةً وعظة[3] .

وذلك يومٌ مشهود : تشهده الخلائق لا يتخلّف منهم أحدٌ[4] عظيم تحضره الملائكة ، ويجتمع فيه الرّسل ، وتحشر الخلائق بأسْرهم من الإنس والجنّ والطّير والوحوش والدّوابّ ، ويحكم فيه العادل الذي لا يظلم مثقال ذرّة ، وإن تك حسنةً يضاعِفْها[5] .

وما نؤخّره إلّا لأجلٍ معدود : ما نؤخّر يوم القيامة إلّا لمدّةٍ مؤقّتةٍ لا يزاد عليها ولا ينتقص منها[6] .

---

(١) تفسير الطّبريّ ٦٨/١٢ .

(٢) تفسير ابن كثير ٤٥٩/٢ وتفسير الطّبريّ ٦٨/١٢ والجلالين وصحيح البخاريّ ٩٣/٦ .

(٣) تفسير الطّبريّ ٦٨/١٢ .

(٤) تفسير الطّبريّ ٦٩/١٢ .

(٥) تفسير ابن كثير ٤٥٩/٢ .

(٦) انظر تفسير ابن كثير ٤٥٩/٢ .

تقرّر الآية الكريمة الأولى أنّ في ذلك القصص الذي تبيّن فيه العذاب الذي أوقعه الله تعالى في الدّنيا بالمكذّبين لعبرةً وعظةً لمن خاف عذاب يوم القيامة الذي لا يقاس به عذاب الدّنيا . إنّ ذلك يومٌ مجموعٌ له النّاس جميعاً من آدم عليه السّلام إلى أن يرث عزّ وجلّ الأرض ومن عليها ، وإنّ ذلك يومٌ مشهود تشهده الخلائق لا يتخلّف منهم أحدٌ من ملائكةٍ وإنسٍ وجنٍّ وطيرٍ ودوابّ ووحوش وما إلى ذلك .

وتقرّر الآية الكريمة الثّانية أنّ الله سبحانه وتعالى إنّما أخّر يوم القيامة لوقتٍ محدّد وموعدٍ مضروب حتّى تستوفي كلّ نفسٍ أجلها وما كتبه الله تعالى وقدّره عليها من سعادةٍ أو شقاوة .

وتقرّر الآية الكريمة الثّالثة أنّ يوم القيامة حينما يأتي لا تتكلّم أيّ نفسٍ إلّا بإذنه جلّ وعلا . ومِنْ هؤلاء من هو شقِيّ والعياذ بالله ، ومن هؤلاء من هو سعيدٌ بفضلٍ من الله ونعمة .

في الصّحيحين من حديث الشّفاعة : ولا يتكلّم يومئذٍ إلّا الرّسل ، ودعوى الرّسل يومئذٍ : اللّهمّ سلّم سلّم[1] .

فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾
خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ
إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾

لهم فيها زفيرٌ وشهيق : قال ابن عبّاس : الزّفير في الحلق ، والشّهيق في الصّدر . أي تنفّسهم زفير ، وأخذهم النّفس شهيق ، لما هم فيه من العذاب عياذاً بالله من ذلك[2] والزّاء والفاء والرّاء أصلان : أحدهما يدلّ على حَمْل ، والآخر على صوتٍ من الأصوات[3] والشّين والهاء والقاف أصلٌ واحدٌ يدلّ على علوّ . من ذلك جبلٌ شاهق ، أي عال . ثمّ اشتُقّ من ذلك الشّهيق : ضدّ الزّفير ، لأنّ الشّهيق ردّ النّفس ، والزّفير إخراج النّفس[4] .

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٤٥٩ .
(٢) تفسير ابن كثير ٢/٤٦٠ .
(٣) معجم مقاييس اللّغة : « زفر » ٣/١٤ .
(٤) معجم مقاييس اللّغة : « شهق » ٣/٢٢٣ .

خالدين فيها ما دامت السّماوات والأرض : لابثين فيها أبداً ، وذلك أنّ العرب إذا أرادت أن تصف الشّيء بالدّوام أبداً قالت : هذا دائمٌ دوام السّماوات والأرض . بمعنى أنّه دائمٌ أبداً ، فخاطبهم جلّ ثناؤه بما يتعارفون به بينهم[1] وعلّق ابن كثير[2] على رأي الطّبريّ بالقول : « قلت : ويحتمل أنّ المراد بما دامت السّماوات والأرض الجنس لأنّه لا بدّ في عالم الآخرة من سماوات وأرض ، كما قال تعالى : يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسّماوات . ولهذا قال الحسن البصريّ في قوله : ما دامت السّماوات والأرض : قال : يقول سماء غير هذه السّماء وأرضٌ غير هذه فما دامت تلك السّماء وتلك الأرض » .

تبيّن الآية الكريمة الأولى أنّ الذي شقوا بأن كفروا في الحياة الأولى وصدّوا عن سبيل الله تعالى وماتوا وهم كفّار سيدخلون في الآخرة النّار ولهم فيها زفيرٌ وشهيق .

وقد عرفنا الزّفير بأنّه إخراج النّفس ، كما عرفنا أنّ الأصل اللّغويّ : « زفر » يرتبط به معنيان اثنان ، أحدهما الدّلالة على الحِمْل الثّقيل ، وآخرهما الصّوت المرتبط بالمجهود المبذول في التّعامل مع ذلك الحمل الثّقيل . وحينما يكون الزّفير هواءً مارّاً بالحلق منبعثاً عن الإحساس بوطأة الحمل الكبير والهمّ الثّقيل ، مقترناً به الصّوت المساوي في القوّة والكمّيّة لقوّة الهواء الخارج وكمّيّته يكون معنى ذلك أنّ تقديم الزّفير في الآية الكريمة على الشّهيق في الذّكر له أبعادٌ عميقة . وتفسير ذلك أنّ الزّفير ليس سوى الوسيلة الفطريّة الحتميّة التي تعبّر بذاتها دون تعمّد من صاحبها وربّما دون وعيٍ منه عمّا يجيش في أعماقه من أحزانٍ وهموم ، وعمّا ينوء به كاهله من أثقال وأحمال ، وما تتكبّل به أطرافه من قيودٍ وأغلال . وبهذا لا يكون الهواء وحده هو الذي يخرج مع الزّفير ، إنّما يخرج الهواء منفجراً حاملاً في أثنائه الهموم والأشجان ، الأسى والأحزان ، ويقترن بخروج الهواء انفجاراً ، وبمروره في الحلق اندفاعاً ، ضربٌ من الأصوات ، يسمعه على جهة الخصوص القريب مكاناً من الزّافر وربّما سمعه البعيد عنه .

ويقترن بالزّفير الشّهيق لأنّهما شقّان لعمليّةٍ واحدة . وكما اقترن بالزّفير الصّوت والأسى ، اقترن بالشّهيق ، وهو دخول الهواء إلى الصّدر ، الصّوت والأسى كذلك ، فقد عرفنا دلالة الأصل اللّغويّ « شهق » على العلوّ . إنّ علوّ الصّوت في الشّهيق غير بعيدٍ عن علوّه في الزّفير .

إنّ الذين شقوا لا يتنفّسون في النّار تنفّساً طبيعيّاً ولكنْ لهم دائماً وأبداً زفيرٌ وشهيق .

---

(١) انظر تفسير الطّبريّ ١٢/٧٠ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢/٤٦٠ .

وتقرّر الآية الكريمة الأخرى خلود الأشقياء في النّار ما دامت السّماوات والأرض ، إلّا ما شاء ربّك أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم بخروج عصاة المؤمنين من النّار بفضله جلّ وعلا . إنّ ربّك أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم فعّال لما يريد ، ولا يعجزه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء ، إن عذّب فبعدله ، وإن عفا فبفضله جلّ وعلا .

وينبغي أن يكون لتكرار لفظ الرّبّ في القول : ﴿ إلّا ما شاء ربّك إنّ ربّك فعّالٌ لما يريد ﴾ كبير دورٍ في التّنبيه إلى تربية الله تعالى عباده بنعمه وآلائه ، وإلى وجوب قيامهم بمبادلة الإحسان بالإحسان بأن يشكروا لا أن يكفروا والعياذ بالله .

وإنّ صيغة المبني للمعلوم : ﴿ شقوا ﴾ تدلّ على اختيار القوم طريق الضّلال والإصرار على سلوكه .

وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾

عطاءً غير مجذوذ : عطاءً من الله غير مقطوعٍ عنهم ، من قولهم : جذذت الشّيء - أجذّه جذّاً إذا قطعته[1] قاله مجاهد وابن عبّاس وأبو العالية وغير واحد لئلّا يتوهّم بعد ذكره المشيئة أنّ ثمّ انقطاعاً أو لبساً أو شيئاً ، بل حتم له بالدّوام وعدم الانقطاع[2] .

تبيّن الآية الكريمة أنّ الذين سعدوا باتّباع الرّسل في الجنّة خالدين فيها ما دامت السّماوات والأرض ، إلّا ما شاء ربّك أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم ، عطاءً من الله تعالى غير مقطوعٍ ولا ممنوع .

« إلّا ما شاء ربّك : معنى الاستثناء ههنا أنّ دوامهم فيما هم فيه من النّعيم ليس أمراً واجباً بذاته بل هو موكولٌ إلى مشيئة الله تعالى فله المنّة عليهم دائماً ، ولهذا يلهمون التّسبيح والتّحميد كما يلهمون النّفس »[3] .

وإنّ صيغة المبني للمجهول : « سُعِدوا » تدلّ من ناحيةٍ على تفضّل الله تعالى بزيادة المهتدين هدًى ، ومن ناحيةٍ أخرى على تفضّل الله تعالى بقبول أعمالهم الصّالحة .

---

(١) تفسير الطّبريّ ١٢/٧٢ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢/٤٦٠ وطبعة كتاب الشّعب ٤/٢٨٢ .

(٣) تفسير ابن كثير ٢/٤٦٠ .

« أمرٌ للمصطفى ﷺ والمؤمنين بالاستقامة
وإقام الصّلاة والصّبر ، ونهيٌ عن الرّكون
إلى الظّالمين الّذين سيعذّبون »
الآيات (١٠٩ ـ ١١٥)

فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ
ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾

فلا تك في مرية ممّا يعبد هؤلاء : فلا تك في شكٍّ يا محمّد ممّا يعبد هؤلاء المشركون من قومك من الآلهة والأصنام أنّه ضلالٌ وباطلٌ وأنّه بالله شرك(١) .

وإنّا لموفّوهم نصيبهم غير منقوص : عن ابن عبّاس : ما قدر لهم من الخير والشرّ(٢) .

تخاطب الآية الكريمة المصطفى ﷺ وتقول له : فلا تك أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم في شكٍّ ممّا يعبد هؤلاء المشركون من قومك من الأصنام والأوثان أنّه ضلالٌ وباطل ، خطأ وشرك . إنّ هؤلاء المشركين ما يعبدون إلّا كما يعبد آباؤهم من قبل فهم على آثارهم مقتدون ، وإنّ ربّ العزّة سيوفّيهم نصيبهم كاملاً من العذاب الأليم غير منقوص في حال شركهم ، وفي المقابل سيوفّيهم نصيبهم كاملاً من النّعيم المقيم غير منقوص في حال إيمانهم .

ومن البيّن ميل الآية الكريمة إلى تسلية المصطفى ﷺ وتثبيت فؤاده عليه الصّلاة والسّلام .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ
سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾

ولقد آتينا موسى الكتاب : يعني التّوراة كما آتيناك الفرقان(٣) .

ولولا كلمةٌ سبقت من ربّك : ولولا كلمةٌ سبقت يا محمّد من ربّك بأنّه لا يعجّل على خلقه بالعذاب ولكن يتأنّى حتّى يبلغ الكتاب أجله(٤) .

لَقُضِيَ بينهم : لقضي بين المكذّب منهم به والمصدّق بإهلاك الله المكذّب به منهم وإنجائه المصدّق به(٥) .

---

(١) تفسير الطّبريّ ١٢/٧٣ .
(٢) تفسير الطّبريّ ١٢/٧٣ .
(٣) تفسير الطّبريّ ١٢/٧٣ .
(٤) تفسير الطّبريّ ١٢/٧٣ .
(٥) تفسير الطّبريّ ١٢/٧٣ .

وإنّهم لفي شكٍّ منه : وإنّ المكذّبين به منهم لفي شكٍّ من حقيقته أنّه من عند الله[1] .

مريب : موقعٍ في الرّيبة[2] ويريبهم فلا يدرون أحقّ هو أم باطل ولكنّهم فيه ممترون[3] .

استمراراً لتثبيت فؤاد المصطفى ﷺ والتّخفيف عنه تقرّر الآية الكريمة أنّ ربّ العزّة آتى موسى عليه السّلام ، كبير أنبياء بني إسرائيل ، الكتاب ، وأنزل عليه التّوراة التي فيها هدًى ونورٌ لبني إسرائيل فاخْتُلِفَ في هذا الكتاب فمنهم من آمن ومنهم من كفر وكان موقفهم من التّوراة شبيهاً بموقف أهل مكّة قوم المصطفى ﷺ من القرآن الكريم . إنّه لولا كلمةٌ سبقت من ربّك جلّ وعلا بتأخير العذاب إلى يوم القيامة لَقُضِي بينهم في هذه الحياة الأولى فعذّب المكذّب وعوقب ، وأثيب المحسن وكوفئ . وإنّ الكافرين بك أيّها الرّسول الكريم لفي شكٍّ من القرآن الكريم أنّه من عند الله تعالى موقعٍ لهم في الرّيبة فلا يدرون أحقٌّ هو أم باطل ، أموحًى به من ربّ العالمين أم أنّه مفترًى . وهكذا يزيد الله تعالى عمي البصائر عمًى إلى عماهم .

وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ ۚ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾

وإنّ : الواو استئنافيّة . إنّ حرف مشبّه بالفعل ناسخ ، ينصب الاسم ويرفع الخبر .

كلًّا : اسم إنّ منصوب .

لمّا : حرف نفي وجزم وقلب حُذِف فعله المجزوم به ، والتّقدير لمّا يوفوا أعمالهم .

ليوفّينّهم : اللّام لام القَسَم لِقَسَمٍ مقدّر . يوفّينّ : فعل مضارع مبنيّ على الفتح في محلّ رفع . والنّون نون التّوكيد . وهم : ضمير في محلّ نصبٍ مفعول به .

ربّك : ربّ فاعل مرفوع بالضّمّة الظّاهرة . والكاف مضافٌ إليه .

أعمالهم : أعمال مفعولٌ به ثانٍ منصوب . وهم : مضافٌ إليه . وجملة لمّا يوفوا أعمالهم في محلّ رفعٍ خبر إنّ[4] .

---

(١) تفسير الطّبريّ ١٢/٧٤ .

(٢) الجلالين .

(٣) تفسير الطّبريّ ١٢/٧٤ .

(٤) انظر الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٦/٣١٦ .

تقرّر الآية الكريمة أنّ كلّ الخلائق لمّا يوفوا جزاء أعمالهم في هذه الحياة الدّنيا ، وأنّهم جميعاً ليوفّينّهم ربّك أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم أعمالهم وليجازينّهم عليها إن خيراً فخير ، وإن شرّاً فشرّ . إنّ الله سبحانه وتعالى بما يعملون خبير ، يستوي عنده جلّ وعلا ظاهر الأمور وباطنها ، ويعلم السّرّ وأخفى .

فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾

تأمر الآية الكريمة المصطفى ﷺ بالاستقامة على أمر ربّه جلّ وعلا وبالثّبات على الدّين الذي ابتعثه الله تعالى به والدّعاء إليه ، كما تأمر بذلك عباد الله تعالى المؤمنين الذين كانت توبتهم بإسلامهم وهجرهم الكفر أو بعد إسلامهم بالكفّ عن عمل السّيّئات والنّدم عليها والعزم على عدم العودة إلى إتيانها . وتنهي الآية الكريمة بعد ذلك عن الطغيان والبغي والظّلم في أيّ صورة ، فإنّ البغي مرتعه وخيم . وتقرّر الآية الكريمة أخيراً أنّ الله سبحانه وتعالى بما نعمل بصير لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السّماء سبحانه وتعالى .

ويلاحظ أنّ الآية الكريمة تأمر المصطفى ﷺ بالاستقامة ، وإنّ الأمر في حقّ أفراد الأمّة المحمّديّة آكد .

وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾

ولا تركنوا : قال ابن عبّاس : ولا تميلوا إلى الذين ظلموا[1] وعنه : يعني الرّكون إلى الشّرك[2] وعن ابن زيد : الرّكون الإدْهان . وقرأ : ودّوا لو تدهن فيدهنون . قال : تركن إليهم ولا تنكر عليهم الذي قالوا ، وقد قالوا العظيم من كفرهم بالله وكتابه ورسله[3] .

أمرت الآية الكريمة السّابقة بالاستقامة ، ونهت عن البغي والطّغيان . وهذه الآية الكريمة تنهي المؤمنين عن الرّكون إلى الظّالمين ، والميل إليهم ، والسّكوت عن ظلمهم ، وعدم

---

(١) تفسير الطّبريّ ٧٦/١٢ .
(٢) تفسير الطّبريّ ٧٦/١٢ .
(٣) تفسير الطّبريّ ٧٦/١٢ .

الإنكار عليهم ولو بالقلب إن لم يكن الإنكار عليهم باليد واللّسان ، وعدم مفارقتهم لأنّ في ذلك تأييداً لهم ومساعدةً لهم على ظلمهم . إنّ نتيجة الرّكون إلى الظّالمين أن تمسّهم النّار أسوةً بالظّالمين وليس لهم من دون الله من أولياء ، وليس لهم من ناصرين ينصرونهم بعد أن خذلهم الله تعالى وأدخلهم النّار مع الظّالمين .

وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾

وأقم الصّلاة طرفي النّهار : يعني الغداة والعشيّ . واختلف أهل التّأويل في التي عنيت بهذه الآية من صلوات العشيّ بعد إجماع جميعهم على أنّ التي عنيت من صلاة الغداة الفجر ، فقال بعضهم : عنيت بذلك صلاة الظّهر والعصر . قالوا : وهما من صلاة العشيّ[1] وعن ابن عبّاس : صلاة الصّبح والمغرب[2] وكذا قال الحسن وعبدالرّحمن بن زيد ابن أسلم[3] وقال الحسن في رواية وقتادة والضّحّاك وغيرهم : هي الصّبح والعصر[4] .

وزُلَفاً من اللّيل : يعني ساعاتٍ من اللّيل ، وهي جمع زُلْفة . والزّلفة : السّاعة والمنزلة والقربة[5] والمنزلة والحَظْوة . وقيل لمنازل اللّيل زُلَف ، قال : وزُلَفاً من اللّيل[6] وليلة المزدلفة خُصّت بذلك لقربهم من مِنًى بعد الإفاضة . وفي الحديث : ازدلفوا إلى الله بركعتين[7] « قال ابن عبّاس ومجاهد والحسن وغيرهم : يعني صلاة العشاء . وقال الحسن في رواية ابن المبارك عن مبارك بن فضالة عنه : وزلفاً من اللّيل ، يعني المغرب والعشاء . قال رسول الله ﷺ : هما زلفا اللّيل المغرب والعشاء . وكذا قال مجاهد ومحمّد بن كعب وقتادة والضّحّاك : إنّها صلاة المغرب والعشاء . وقد يحتمل أن تكون هذه الآية نزلت قبل فرض الصّلوات الخمس ليلة الإسراء فإنّه إنّما كان يجب من الصّلاة صلاتان ، صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل

---

(١) تفسير الطّبريّ ٧٦/١٢ وتفسير ابن كثير ٤٦٢/٢ .
(٢) تفسير الطّبريّ ٧٦/١٢ وتفسير ابن كثير ٤٦١/٢ .
(٣) تفسير ابن كثير ٤٦١/٢ .
(٤) تفسير ابن كثير ٤٦٢/٢ .
(٥) تفسير الطّبريّ ٧٧/١٢ .
(٦) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « زلف » ٢١٤ .
(٧) مفردات الرّاغب الأصفهانيّ : « زلف » ٢١٥ .

غروبها ، وفي أثناء اللّيل قيامٌ عليه وعلى الأمّة ثمّ نُسِخَ في حقّ الأمّة وثبت وجوبه عليه ، ثمّ نُسِخَ عنه أيضاً في قول . والله أعلم »[1] .

كان من قبل أمرٌ بالاستقامة وذلك في القول : ﴿ فاستقم كما أُمِرْت ومن تاب معك ﴾ ويكون هنا أمرٌ بإقام الصّلاة لأنّ الصّلاة عماد الدّين ، ولأنّها تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولأنّها عماد الاستقامة . وفي الآية الكريمة أمرٌ بإقام الصّلاة طرفي النّهار وجانبيه ، وأمرٌ بإقام الصّلاة ساعاتٍ من اللّيل . وقد فهم العلماء من صلاة أوّل النّهار صلاة الفجر ، وفهم بعضهم من صلاة آخر النّهار أو طرف النّهار الآخر صلاتي الظّهر والعصر . كما فهم بعض العلما من إقام الصّلاة زُلَفاً من اللّيل صلاتي المغرب والعشاء . وبذلك تكون الآية الكريمة قد شملت الصّلوات الخمس المفروضة . ومن المعروف أنّ الصّلوات الخمس فُرِضت ليلة الإسراء والمعراج وقبل ذلك كان المصطفى ﷺ يصلّي ركعتين صباحاً وركعتين مساءً كما كان يفعل إبراهيم عليه السّلام[2] وبذلك يكون الرّأي الذي يذهب إلى إشارة الآية الكريمة إلى الصّلوات الخمس المفروضة يرى أنّ آية سورة هود المكّيّة الكريمة نزلت بعد الإسراء الذي كان فرض الصّلوات الخمس في السّماوات العُلَى في ليلته . ومن العلماء من يرى أنّ الآية الكريمة نزلت قبل فرض الصّلوات الخمس وعليه يكون المراد بصلاة طرف النّهار الأوّل الرّكعتين صباحاً ، والمراد بصلاة طرف النّهار الآخر الرّكعتين مساءً ، ويكون المراد بصلاة اللّيل صلاة القيام التي كانت واجبةً في حقّه عليه الصّلاة والسّلام وقتاً من الأوقات . والله أعلم .

وتقرّر الآية الكريمة أنّ الحسنات بعامّة تذهب السّيّئات بعامّة وتمحوها ، وأنّ في ذلك ذكرى للذّاكرين وعظةً للمتّعظين فأقيموا الصّلاة ﴿ وافعلوا الخير لعلّكم تفلحون ﴾[3] .

سبب النّزول :

وقد جاء في صحيح البخاريّ[4] في سبب نزول الآية الكريمة « عن ابن مسعود رضي الله عنه أنّ رجلاً أصاب من امرأة قُبْلَةً فأتى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له فأُنْزِلت عليه : وأقم الصّلاة طرفي النّهار وزُلَفاً من اللّيل إنّ الحسنات يذهبن السّيّئات . ذلك ذكري للذّاكرين . قال الرّجل : ألِيَ هذه ؟ قال : لمن عمل بها مِنْ أُمّتي » .

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٤٦٢ .

(٢) نور اليقين في سيرة سيّد المرسلين ، محمّد الخضريّ ٨٣ دار المعارف .

(٣) سورة الحجّ ٧٧ .

(٤) ٦/٩٤ وانظر أسباب النّزول للنّيسابوريّ ٣٠٦ ـ ٣١٠ .

ويُفهم من الأحاديث في سبب النّزول أنّ الآية الكريمة نزلت بعد الهجرة إلى المدينة المنوّرة ، أي بعد الإسراء والمعراج الذي كان قبل الهجرة[1] وبناءً على ذلك فالآية الكريمة مدنيّةٌ في سورةٍ مكّيّة .

وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾

كان ثمّة أمرٌ للمصطفى ﷺ ولكلّ مسلمٍ بالاستقامة ، وبإقام الصّلاة لأنّها من أكبر العون والأدلّة على الاستقامة . ويكون هنا أمرٌ بالصّبر بسبب تغلغل الصّبر في العبادات كلّها ، وبسبب تغلغله في الصّلاة بأكثر من تغلغله في أركان الإسلام الأربعة بعد الشّهادتين . وإنّما كان حظّ الصّلاة من الصّبر كبيراً بسبب تكرار الصّلاة في اليوم واللّيلة فرضاً ونفلاً وقد قال تعالى[2] : ﴿ واستعينوا بالصّبر والصّلاة . وإنّها لكبيرةٌ إلّا على الخاشعين . الذين يظنّون أنّهم ملاقو ربّهم وأنّهم إليه راجعون ﴾ .

وتبيّن الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى لا يضيع أجر المحسنين . وحينما يكون الإحسان ركناً واحداً كما بيّنه الحديث النّبويّ الشّريف[3] بأن تعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك ، يكون إحسان كلّ شيءٍ وسيلةً حتميّةً للارتقاء بفضل الله تعالى إلى مرتبة الإحسان مروراً بمرتبتي الإسلام والإيمان قبلها .

ولا يخفى أنّ الصّبر ثلاثة أنواع : صبرٌ على البلاء ، وصبرٌ على الطّاعات ، وصبرٌ عن المعاصي . وما أكثر ما عانى المصطفى ﷺ من كفّار مكّة المكرّمة قبل أن يهاجر عليه الصّلاة والسّلام إلى المدينة المنوّرة .

---

(١) انظر مثلاً فتح الباري ٨/٣٥٦ و٣٥٧ وأسباب النّزول ٣٠٦ ـ ٣١٠ .

(٢) سورة البقرة ٤٥ ، ٤٦ .

(٣) صحيح البخاريّ ١/٢٠ .

« وجوب الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر ،
وكلٌّ ميسّرٌ لما خُلِق له مِنْ عذابٍ أو رحمة ،
وتثبيتٌ لفؤاده ﷺ ، والقرآن موعظةٌ وذكرى »
الآيات (١١٦ ـ ١٢٣)

فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾

فلولا كان من القرون من قبلكم : فهلّا كان من القرون الذين قصصت عليك نبأهم في هذه السّورة الذين أهلكتهم بمعصيتهم إيّاي وكفرهم برسلي من قبلكم[1] ولولا حرف تحضيض فيه معنى النّفي[2] .

أولو بقيّة : ذو بقيّةٍ من الفهم والعقل يعتبرون مواعظ الله ويتدبّرون حججه فيعرفون ما لهم في الإيمان بالله وعليهم في الكفر به[3] .

إلّا قليلاً ممّن أنجينا منهم : لم يكن من القرون من قبلكم أولو بقيّةٍ ينهون عن الفساد في الأرض إلّا يسيراً فإنّهم كانوا ينهون عن الفساد في الأرض فنجّاهم الله من عذابه[4] .

واتّبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه : ما نعّموا فيه[5] .

- في معرض إنكار الآية الكريمة على الأمم السّابقة المكذّبة التي أخذها الله تعالى أخذ عزيزٍ مقتدر تقول الآية الكريمة : هلّا كان من الأمم السّالفة والجماعات السّابقة التي أهلكها الله تعالى ذوو بقيّةٍ من فهم ، وأولو أثارةٍ من عقل ، ينهون أقوامهم عن الفساد في الأرض بالكفر بالله تعالى وكفران النّعم . وإذا كان التّحضيض على معناه فالاستثناء منقطع وإلّا بمعنى لكن[6] والمعنى : لكنّ قليلاً ممّن أنجينا منهم كان نهيهم غيرهم عن الفساد في الأرض سبب إنجائنا لهم .

أمّا الأكثريّة الظّالمة التي أخذها الله تعالى أخذ عزيزٍ مقتدر فإنّها اتّبعت ما أُتْرِفَتْ فيه ، وانساقت خلف ما نُعِّمَتْ فيه ، ولهثت بسبب التّرف والنّعيم وراء متع الدّنيا الرّخيصة ، وتنكّبت الصّراط المستقيم ، واقتنصت اللّذّات ، وحرصت على الشّهوات وكانت جماعةً مجرمةً حقّاً فاستحقّت غضب الله تعالى ، ونالت عذابه في الأولى قبل الآخرة .

---

(١) تفسير الطّبريّ ٨٣/١٢ .

(٢) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٣٢٤/٦ وصحّة رقم الصّفحة ٣٢٠ .

(٣) تفسير الطّبريّ ٨٣/١٢ .

(٤) تفسير الطّبريّ ٨٣/١٢ .

(٥) تفسير الطّبريّ ٨٤/١٢ والجلالين .

(٦) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٣٢٥/٦ وصحّة رقم الصّفحة ٣٢١ .

والآية الكريمة تنبّه إلى وجوب الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر . وقد قال تعالى[1] : ﴿ ولتكن منكم أمّةٌ يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر . وأولئك هم المفلحون ﴾ .

وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾

تخاطب الآية الكريمة المصطفى ﷺ ، الذي قصّ الله تعالى عليه في السّورة الكريمة نبأ الأمم الغابرة التي أهلكها جلّ وعلا ، وتقول له : وما كان ربّك أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم ليهلك القرى ويبيد أهلها بظلمٍ منه جلّ وعلا لها بأن يهلك أهلها وهم صالحون مصلحون . إنّ الله تعالى لا يهلك إلّا القوم الفاسقين ، وإنّ الله تعالى حينما يعذّب فبعدله ، وحينما يعفو فبفضله : ﴿ لا يُسْأل عمّا يفعل وهم يُسْألون ﴾[2] .

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾

جاء في سورة هود القول : ﴿ ربّك ﴾ سبع عشرة مرّة ، منها خمس عشرة مرّةً خطاباً لمحمّد بن عبد الله ﷺ ، ومرّةً واحدة خطاباً لإبراهيم عليه السّلام في الآية الكريمة السّادسة والسّبعين ، ومرّةً واحدةً خطاباً للوطٍ عليه السّلام في الآية الكريمة الحادية والثّمانين . وإنّ الجزء الأخير من السّورة الكريمة ، من الآية الكريمة تمام المائة إلى نهاية السّورة الكريمة ، وعدد آيه أربعٌ وعشرون آية ، يجيء فيه القول : « ربّك » اثنتي عشرة مرّة ، تأكيداً لتثبيت البرّ الرّءوف الرّحيم فؤاد عبده وحبيبه محمّد بن عبد الله ﷺ الذي كان آنذاك في مكّة المكرّمة يعاني هو والفئة المؤمنة من كفّارها أشدّ العنت .

وإذا كان القول : ﴿ ربّك ﴾ يجيء مرّةً واحدةً في الآية الكريمة السّابقة فإنّه يجيء كذلك في الآية الكريمة الأولى مرّةً واحدةً على حين يجيء في الآية الكريمة الثّانية مرّتين اثنتين .

---

(١) سورة آل عمران ١٠٤ .

(٢) سورة الأنبياء ٢٣ .

إنّ ربّ العزّة يقول لحبيبه المصطفى ﷺ : ولو شاء ربّك أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم لجعل النّاس أجمعين أمّةً واحدةً أتباع دينٍ واحدٍ ورسولٍ كريمٍ واحدٍ ، ولكن شاء الله سبحانه وتعالى أن يختلف النّاس في الدّين وأن يظلّوا مختلفين إلّا من رحم ربّك جلّ وعلا فهداهم إلى دين الإسلام الذي بعث الله تعالى به خاتم النّبيّين وأشرف المرسلين محمّد بن عبد الله ﷺ . ولذلك خلق الله تعالى النّاس ، وكلٌّ ميسّرٌ لما خُلِق له ، ومنهم الكافر المخالف المعاند ، ومنهم المؤمن الموافق المرحوم . وتمّت كلمة ربّك أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم بدخول الكافرين جهنّم وملء جهنّم من الجنّة والنّاس أجمعين .

وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾

الآية الكريمة تثبيتٌ صريحٌ لفؤاد المصطفى ﷺ ، وتطمينٌ لقلبه عليه الصّلاة والسّلام . إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ كلّ أخبارٍ يقصّها الله تعالى عن النّبيّين السّابقين وما جرى لهم مع أقوامهم ممّا يثبّت به الله تعالى فؤاد المصطفى ﷺ ويقوّي قلبه لأنّ فيهم أسوةً حسنةً له ﷺ . وتبيّن الآية الكريمة أنّ الرّسول الكريم ﷺ قد جاءه في هذه السّورة الكريمة الحقّ من ربّ العالمين كما جاء في سائر سور القرآن الكريم ، وموعظةٌ للكافرين والظّالمين كي يعودوا إلى جادّة الصّواب ، وذكرى للمؤمنين تنفعهم في أولاهم وأخراهم .

وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾
وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾

حينما لا يتّعظ الكافرون بكلّ هذه الآيات البيّنات ولا يستفيدون من قصص النّبيّين السّابقين ويصرّون على الكفر فإنّ الآية الكريمة تأمر المصطفى ﷺ أن يقول لهم على سبيل التّهديد والوعيد : اعملوا على مكانتكم وحالتكم[1] وعلى طريقتكم ومنهجكم[2] فإنّا عاملون على طريقتنا ومنهجنا ، وانتظروا ما وعدكم الشّيطان الرّجيم الغرور الخذول للإنسان إنّا منتظرون وعد الله تعالى الحقّ ، من نصرنا عليكم في الحياة الدّنيا ويوم يقوم الأشهاد .

---

(١) الجلالين .

(٢) تفسير ابن كثير ٢/٤٦٦ .

وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ
فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

آخر آيات السّورة الكريمة تقرّر أنّ لله سبحانه وتعالى عالم الغيب في السّماوات والأرض ، ومن باب الأَوْلى عالم الشّهادة ، نقول هذا بلغتنا نحن البشر وإلّا فإنّ عالمي الغيب والشّهادة في حقّ الذّات العليّة سواء . وإلى الله تعالى يُرْجَعُ الأمر كلّه يوم القيامة ، فإن شاء عذّب بعدله ، وإن شاء عفا بفضله . فاعبد أيّها العبد ربّك وحده لا شريك له ، وتوكّل عليه في كلّ شئونك . وما ربّك أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم بغافلٍ عمّا تعملون أيّها النّاس ولكنّه جلّ وعلا يؤخّر الظّالمين ليومٍ تشخص فيه الأبصار ، وتبلغ فيه القلوب الحناجر . إنّ عليكم أيّها النّاس أن تستفيدوا من هذه الدّروس القرآنيّة ، وأن تنتفعوا من فترة الإمهال ، وأن تتوبوا إليه جلّ وعلا توبةً نصوحاً .

ثانياً

سورة يوسف

حتّى نهاية الجزء الثّاني عشر

سُورَةُ يُوسُفَ

ترتيبها ١٢ — آياتها ١١١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا
لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ
بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ
لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ
أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾

قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ
إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ
رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ
وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ
إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٦﴾ ۞ لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ
ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾ إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ
أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقۡتُلُواْ
يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ
بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ
وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ
فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ
لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ
لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ
أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنۡ
أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾

فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ
إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَآءُوٓ
أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ
وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ
بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ
بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ
وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟
وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ
وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ
دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ
ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ
أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى
ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ
أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ
أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾

وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ
وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ
إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا
لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ
وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا
ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ
قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ
أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ
ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ
مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ
مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ
هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ
﴿٢٩﴾ ۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا
عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾

فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ
كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ
وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ
كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن
نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا
مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ
إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ
﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ
ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ
حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ
إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ
رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا
بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ
مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾

وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ
لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى
ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَٰصَٰحِبَىِ
ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ
﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ
وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ
أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ
ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا
فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ
مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِى
ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ
ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ
﴿٤٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ
سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ
يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾

قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾
وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ
فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ
سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ
وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ
تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا
قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ
مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ
عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى
بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ
ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ
مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ
مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ
ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ
لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾

بين يدي التّفسير

« القرآن الكريم يقصّ أحسن القصص ، ومنه قصّة يوسف عليه السّلام الّذي علّمه ربّه تعبير الرّؤى »
الآيات (١ ـ ٦)

تبدأ سورة يوسف الكريمة بالحروف المقطّعة : ﴿ الر ﴾ ويجيء فيها الانتصار للقرآن الكريم وهي بذلك على غرار سائر السّور التي تبدأ بهذه الحروف المقطّعة ويجيء فيها الانتصار للقرآن الكريم على الفور أو التّراخي . ويوصف الكتاب بأنّه مبين ، وبذلك تشير الآية الكريمة إلى وسيلة الكتابة التي حفظت الكتاب العزيز في حين تشير الآية الكريمة الثّانية باستعمال لفظة قرآن إلى الوسيلة الأخرى لحفظ الكتاب العزيز وهي الصّدور . ويوصف القرآن الكريم بأنّه عربيّ وينصّ على الحكمة من ذلك وهي أن يعقله ابتداءً العرب مادّة الإسلام الأولى . وتقرّر الآية الكريمة الثّالثة أنّ ربّ العزّة يقصّ على حبيبه المصطفى ﷺ أحسن القصص بإيحائه القرآن الكريم إلى النّبيّ ﷺ الذي كان من قبله لمن الغافلين .

ومن هذا القصص الحسن قصّة يوسف عليه السّلام الذي قال لأبيه المحبّ له حبّاً جمّاً : ﴿ يا أبت إنّي رأيت أحد عشر كوكباً والشّمس والقمر رأيتهم لي ساجدين ﴾ ويلفت النّظر في الآية الكريمة الرّابعة أنّنا بصدد رؤيا تبدأ بها القصّة وتُختَم القصّة بتعبيرها حينما يسجد ليوسف عليه السّلام سجود تعظيم ، وقد كان آنذاك عزيزها إن لم يكن ملكها ، الأحد عشر أخاً وهم الكواكب في الرّؤيا ، والشّمس والقمر وهما أمّ يوسف عليه السّلام وأبوه . ومن الأدلّة على براءة يوسف صيغة الزّمن الماضي في القول : ﴿ إنّي رأيت ﴾ : ﴿ رأيتهم ﴾ فهو يقصّ الرّؤيا ولا يخطر بباله تعبيرها وما تئول إليه . ومن الأدلّة على صفاء نفسه عليه السّلام انعكاس صفاء سماء البيئة في الرّؤيا . فالكواكب أحد عشر ، والشّمس والقمر يجتمعان والمعروف أنّهما في اللّيلة التي يكون فيها القمر بدراً لا يجتمعان مطلقاً . وبباعث الشّفقة ينادي يعقوب عليه السّلام في الآية الكريمة الخامسة ابنه الحبيب يوسف عليه السّلام في صيغة تصغير التّمليح : ﴿ يا بنيّ ﴾ وينهاه عن قصّ رؤياه على إخوته كيلا يكيدوا له كيداً بتسويل من الشّيطان الرّجيم العدوّ البيّن العداوة للإنسان . والآية الكريمة السّادسة بمثابة التّعليل لنهيه عليه السّلام عن قصّ رؤياه على إخوته ، وحسد الإخوة له عليه السّلام . إنّ الله سبحانه وتعالى يصطفي يوسف عليه السّلام من بين إخوته ومن بين آل يعقوب ، ويعلّمه من تأويل الأحاديث وتعبير الرّؤى ، ويتمّ نعمته عليه بالنّبوّة التي أتمّها على أبويه من قبل إبراهيم وإسحاق : ﴿ إنّ ربّك عليمٌ حكيم ﴾ .

والآيات الكريمات السّتّ بمثابة المقدّمة بين يدي قصّة يوسف عليه السّلام ، وفي

هذه المقدّمة عرفنا أهمّ الشّخصيّات وأهمّ البواعث على دفع أحداث القصّة إلى الأمام ، ومنها حبّ يعقوب غير العاديّ ليوسف عليه السّلام ، ونعم الله تعالى على يوسف عليه السّلام بالنّبوّة وتعبير الرّؤى فقد كان عليه السّلام أعبر النّاس للرّؤى ، وبكيدٍ من الشّيطان الرّجيم كاد عشرةٌ من الإخوة ليوسف عليه السّلام كيداً .

« يوسف عليه السّلام يجعله إخوته في غيابة الجبّ فتلتقطه سيّارةٌ وتبيعه في مصر بثمنٍ بخسٍ » الآيات (٧ ـ ٢٠)

يقرّر السّياق أنّه كان في يوسف عليه السّلام وإخوته آياتٌ للسّائلين عن قصّتهم العجيبة وحوادثها الغريبة ، إذ قال الإخوة ليَوسُفُ وأخوه الشّقيق لأمّه ، ويلاحظ أنهم لا يقولون : ليوسف وأخونا بنيامين مثلاً ، أحبّ إلى أبينا يعقوب عليه السّلام منّا ونحن عصبةٌ من الرّجال تُعْصَب بنا الأمور وتناط المهمّات إنّ أبانا لفي ضلالٍ مبينٍ وواضح بتفضيلهما علينا . ويقترح فريقٌ من الإخوة قتل يوسف ويكتفون بالاقتراح ويريدون من الآخرين التّنفيذ : ﴿ اقتلوا يوسف ﴾ ويقترح فريقٌ آخر من الإخوة طرح يوسف أرضاً مخوفةً يغلب قتل يوسف أو موته فيها ، ويكتفون بالاقتراح ويريدون من الآخرين التّنفيذ : ﴿ أو اطرحوه أرضاً ﴾ ويعيّنون السّبب للقتل أو الطّرح أرضاً : ﴿ يخل لكم وجه أبيكم ﴾ ويبيّتون التّوبة والعودة قوماً صالحين : ﴿ وتكونوا من بعده قوماً صالحين ﴾ ويقترح أخٌ منهم وضع الله تعالى في قلبه القدر الضّئيل من الودّ ليوسف أن يلقوه في غيابة الجبّ كي يلتقطه بعض السّيّارة إن كانوا مصمّمين على التّخلّص من يوسف عليه السّلام . ويلفت النّظر جعل هذا الأخ الرّأيين رأياً واحداً وقتلاً عمداً ، وهذا دليلٌ على القدر الضّئيل من الودّ ليوسف هذا إلى امتصاصه حماسة إخوته باستعماله جملة : ﴿ وألقوه ﴾ في حين يجيء في السّياق إشارةً إلى تنفيذ العمليّة جملة : ﴿ أن يجعلوه ﴾ هذا إلى ذكره للسّيّارة التي ستلتقط يوسف عليه السّلام دليلاً على أنّ حديث الأخ كان عن بئر غير مطويّة ولكنّها معروفة وفي طريقٍ عامرةٍ بدليل مجيء جملة : ﴿ وجاءت سيّارة ﴾ في الآية الكريمة الثّامنة عشرة . والمعروف أنّ جملة ﴿ جاء ﴾ تستعمل في القرآن الكريم دليلاً على القرب . ويطلب الإخوة من يعقوب عليه السّلام أن يسمح لهم بأخذ يوسف معهم في طريقةٍ تذكّر بالقول المشهور : كاد المريب أن يقول خذوني . فهم يسألون أباهم : لماذا لا يأمنهم على يوسف وإنّهم له لناصحون . ويطلبون منه أن يرسله معهم كي يرتع ويلعب وإنّهم له لحافظون . وإنّ يعقوب عليه السّلام الذي لا يقول إلّا الحقّ

ولا ينطق إلّا بالصّدق يعبّر بصريح العبارة عن حزنه لذهابهم بيوسف وخوفه عليه أن يأكله الذّئب وهم عنه غافلون في تلك المنطقة المليئة بالذّئاب . ويتجاوز الإخوة حزن يعقوب عليه السّلام ويبيّنون له عليه السّلام أنّه لا داعي لخوفه من الذّئب على يوسف لأنّهم عصبةٌ من الرّجال وإلّا كانوا خاسرين . ويذهب الإخوة بيوسف ، ويجمعون على جعله في غيابة الجبّ ويسيئون معاملته ويوحي الله تعالى إلى يوسف عليه السّلام وحي إلهامٍ بأنه سينبّئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون بذلك الوحي أو السّكينة التي أنزلها الله تعالى على الغلام يوسف . وهكذا تلازم رحمة الله تعالى يوسف عليه السّلام في هذا الموقف العصيب وفي كلّ موقفٍ آخر مماثل . ونفّذ الإخوة جريمتهم . ﴿ وجاءوا أباهم عشاءً يبكون ﴾ مستعينين بظلام اللّيل على إخفاء حقيقة ملامحهم ومشاعرهم من ناحية وبرفع أصوات البكاء في الظّلام من ناحيةٍ أخرى ، وفرّوا إلى العذر الذي حذّرهم منه يعقوب عليه السّلام لأنّه لا يوجد مبرّرٌ آخر معقول . ويختمون صراخهم بالقول : ﴿ وما أنت بمؤمن لنا ولو كنّا صادقين ﴾ ويختمون فعلهم بالمجيء بقميص يوسف وعليه دمٌ كذب هو دم السَّخْلة أو الجدي الذي ذبحوا . ويبيّن يعقوب عليه السّلام لأبنائه أنّ أنفسهم الأمّارة بالسّوء زيّنت لهم القبيح ، ويفرّ إلى الصّبر الجميل الذي لا جزع فيه ويستعين بالله تعالى على ما يصفون من القول ويأتون من الكذب . وجاءت قافلة فأرسلوا واحداً منهم إلى الجبّ كي يأتيهم بالماء فأدلى دلوه وأرسل مع الدّلو بصره فانصرف البصر عن متابعة الدّلو إلى رؤية الغلام يوسف الذي نظنّ أنّه كان لديه القدر الضّروريّ من الهواء ومن الضّوء بدليل قول الوارد : ﴿ يا بشرى هذا غلام ﴾ وأسرّت السّيّارة الغلام بضاعةً تبيعه عبداً في أوّل سوقٍ يصادفها . ﴿ والله عليمٌ بما يعملون ﴾ وباعوه بثمنٍ ناقصٍ دراهم ليست دنانير معدودةٍ لقلّتها وليست موزونةً لكثرتها وكانوا فيه من الزّاهدين غير الرّاغبين فيه وفي بقائه معهم لأمرٍ يريده الله تعالى .

((يوسف عليه السّلام في بيت العزيز وتجربته عليه السّلام المريرة مع امرأة العزيز))
الآيات (٢١ ـ ٣٥)

وقال الذي اشترى يوسف عليه السّلام من مصر ، ولا نعرف أنّه عزيز مصر إلّا في الآية الكريمة الثّلاثين على لسان النّسوة اللّاتي لُمْن امرأته على شغفها بفتاها يوسف ، وهذا من أدب القرآن الكريم ، قال الذي اشترى يوسف لامرأته أكرمي موضع إقامة يوسف فكيف بيوسف عليه السّلام ذاته . ويعلّق على الإكرامين رجاءين يُبْني آخرهما على أوّلهما ، أن

ينفعهما أو يتّخذاه ولداً وهما اللّذان ليس لهما الذّرّيّة . وكما صرف الله تعالى عن يوسف شرّ غيابة الجبّ وأنزل عليه السّكينة مكّن جلّ وعلا ليوسف في أرض مصر بواسطة عزيزها هذه المرّة ، وليعلّمه جلّ وعلا من تأويل الأحاديث وتعبير الرّؤى . والله سبحانه وتعالى غالبٌ على أمره ولكنّ أكثر النّاس لا يعلمون ذلك ومنهم إخوة يوسف . ولمّا بلغ عليه السّلام أشدّه ومبلغ الرّجال آتاه الله تعالى ، جزاء بلوغه مرتبة الإحسان في كلّ شيء ، بما في ذلك مجال العفّة ، حكمةً بالغةً وعلماً لدنّيا . وراودت امرأة العزيز ، التي يعبّر عنها القرآن الكريم بالقول : ﴿ التي هو في بيتها ﴾ دون أن نعرف أنّها امرأة عزيز مصر امتداداً للدّروس القرآنيّة في الأخلاق وستر العورات ، راودت يوسف عليه السّلام عن نفسه وخادعته عنها ، وحامت حوله في لطف ، وذهبت وجاءت في مكر ، وصمّمت على نيل ما تشتهي منه نفسها الأمّارة بالسّوء بتزيينٍ من الشّيطان الرّجيم ، وغلّقت الأبواب جميعها وأحكمت إغلاقها وقالت هيت لك وهلمّ ، ادنُ وتقرّب . وفرّ عليه السّلام إلى أحكم الحاكمين وأرحم الرّاحمين فاستعاذ به جلّ وعلا واستفظع ما تدعوه إليه المرأة وقال إنّ هذا الذي يُطْلَب منّي أن أخونه في أهله سيّدي عزيز مصر الذي أحسن مثواي : ﴿ إنّه لا يفلح الظّالمون ﴾ ولقد همّت المرأة بيوسف عليه السّلام ولولا أن رأى برهان ربّه جلّ وعلا لهمّ بها ، والمعروف أنّ لولا حرّف امتناع لوجود ، بمعنى أنّ الهمّ امتنع لوجود البرهان من ربّ يوسف عليه السّلام وربّ كلّ شيء .

وإنّما جاء التّعبير في هذه الصّورة : ﴿ وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربّه ﴾ لأنّ هذا التّعبير وحده يبيّن أنّ لجهاد يوسف عليه السّلام في الله تعالى فضلاً في الوصول إلى هذه النّهاية السّعيدة فقد هداه الله تعالى سبله وأراه برهانه هذا إلى ما يسمى في البلاغة بالمشاكلة أو مراعاة النّظير أو المزاوجة بين القول : ﴿ ولقد همّت به ﴾ وبين القول : ﴿ وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربّه ﴾ كذلك يري الله تعالى يوسف عليه السّلام البرهان ليصرف عنه السّوء بمعنى الاستجابة النّفسيّة للإغراء ، والفحشاء بمعنى الزّنى . إنّه عليه الصّلاة والسّلام من عباد الله تعالى المخلصين المصطفين الأخيار . ولم يقف يوسف عليه السّلام عند الإباء القوليّ والعمليّ إنّما تجاوزهما إلى الفرار بدينه فانطلق صوب الباب المفضي إلى خارج الدّار وانطلقت خلفه المرأة الشّابّة في قوّةٍ مساويةٍ . وقد عوّضت المرأة مبادرة يوسف بالانطلاق حيث الباب بيدها الممتدّة المحاولة الإمساك به فلم تنل سوى قميصه الذي شقّته من خلفه . وحينما فتح يوسف الباب وجد الزّوج عنده فبادرت المرأة إلى اتّهام يوسف ، بل إلى مجاوزة الاتّهام إلى إصدار الحكم عليه فحقّ من أراد بأهل العزيز سوءاً أن يسجن أو أن ينال العذاب الأليم !

ويبادر يوسف عليه السّلام إلى قول كلمة الحقّ : ﴿ قال هي راودتني عن نفسي ﴾ وإنّ أرحم الرّاحمين الذي ينقذ يوسف عليه السّلام من كلّ ورطةٍ يقيّض الدّليل على براءة يوسف عليه السّلام في هيئة القميص الممزّق من خلفه ، والمعروف أنّ للقميص ثلاثة أدوارٍ مهمّةٍ في قصّة يوسف عليه السّلام ، حينما جاء الإخوة بقميصه زاعمين أنّ الذّئب أكله ، وحينما قُدَّ القميص من دبره ، وحينما ألقى البشير القميص على وجه يعقوب عليه السّلام فارتدّ بصيراً . وكما قيّض الله تعالى الدّليل على براءة يوسف عليه السّلام قيّض الشّاهد الحكيم العادل الذي كان من أهل المرأة فلا مكان لاتّهامه بالانحياز ضدّها . قال تعالى : ﴿ وشهد شاهدٌ من أهلها إن كان قميصه قدّ من قُبُلٍ فصدقت وهو من الكاذبين . وإن كان قميصه قُدّ من دبر فكذبت وهو من الصّادقين . فلمّا رأى قميصه قُدّ من دبرٍ قال إنّه من كيدكنّ إن كيدكنّ عظيم . يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك إنّك كنت من الخاطئين ﴾ ويلاحظ تمنّي الشّاهد براءة المرأة وذلك بتقديم الشّقّ من الحكم الذي هو في صالحها وتأخير الشّقّ الآخر الذي هو في صالح يوسف عليه السّلام ، كما يلاحظ أنّ هذه المسألة الخطيرة يراد أن يوضع حدّ لها ليس لأنّ يوسف عليه السّلام هو البريء ولكن لأنّ امرأة العزيز هي المتّهمة ! وهكذا تكون الأحكام في حالة غياب الأحكام السّماويّة وفي حالة تعطيلها .

ولم تنس المرأة طعن يوسف عليه السّلام لها في عزّتها الآثمة ، وكانت كلّها آذاناً صاغيةً لما يقال عنها : ﴿ وقال نسوةٌ في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبّا . إنّا لنراها في ضلالٍ مبين ﴾ وسمعت المرأة بقولهنّ عنها الذي فسّرته بأنه مكرٌ منهنّ بها ! فصمّمت على الانتقام من النّسوة من ناحية ومعاودة الكرّة مع يوسف عليه السّلام من ناحيةٍ أخرى فعملت وليمةً دعت إليها أولئك النّسوة ، وتعمّدت أن تكون الفاكهة من النّوع الذي ينبغي تقطيعه بالسّكّين ، وأعطت كلّ واحدةٍ من النّسوة سكّيناً ، وفي اللّحظة المناسبة أمرت فتاها يوسف عليه السّلام بالقول : ﴿ اخرج عليهنّ ﴾ فلمّا رأينه أعظمنه وقلن تنزيهاً لله تعالى ما هذا بشراً ، ما هذا إلا ملكٌ كريم لما استقرّ في كلّ نفسٍ من جمال الملائكة . وإنّ من أهمّ ما لفت الانتباه مجيء جملة : ﴿ اخرج عليهنّ ﴾ وليس جملة : ادخل عليهنّ ، دليلاً على أنّ امرأة العزيز تعلم أنّ نجاح خطّتها متوقّفٌ على طاعة فتاها يوسف لها حينما تطلب منه التّحوّل إلى النّسوة لذا فإنّها وضعت يوسف عليه السّلام داخل المنزل بحيث يكون تحوّله من مكانه إلى مكان النّسوة ، سواءٌ أكان راضياً أم ساخطاً ، خروجاً فمروراً على النّسوة بالضّرورة . أما وقد كسبت امرأة العزيز الجولة فقد تحوّلت أداةً طيّعةً في يد نفسها الأمّارة بالسّوء والشّيطان الرّجيم على نحو ما يفهم من هذه الآية الكريمة : ﴿ قالت فذلكنّ الذي لمتنّني فيه ولقد راودته

عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجننّ وليكونَنْ من الصّاغرين ﴾ ويؤثر يوسف عليه السّلام السّجن على ما يدعوه النّسوة إليه ويفرّ إلى أرحم الرّاحمين سائلاً منه تعالى أن يصرف عنه كيدهنّ وإلّا مالت نفسه إليهنّ وكان من الجاهلين . ويستجيب ربّ العبد يوسف الفقير إلى مولاه وربّ كلّ شيءٍ دعاء المضطرّ إليه يوسف عليه السّلام فيصرف عنه السّميع العليم كيد النّسوة وفيهنّ امرأة العزيز . ثمّ بدا لرجال السّلطة في ذلك المجتمع المتفسّخ الذي تسيّر شئونه النّساء بأكثر من الرّجال وظهر لهم رأيٌ آخر بعدما رأوا الآيات البيّنات على طهر يوسف عليه السّلام أن يسجنوه عليه السّلام حتّى تهدأ الشّائعات المتعلّقة بامرأة العزيز وبالنّسوة المنتميات لبيوتات ذلك المجتمع المترف المتفسّخ .

« يوسف عليه السّلام في السّجن يكرمه الله تعالى بالنّبوّة وتعبير الرّؤى فيدعو إلى التّوحيد ويعبّر رؤيا الفتيين »
الآيات (٣٦ ـ ٤٢)

شاء الله سبحانه وتعالى أن يُسْجَنَ يوسف عليه السّلام ظلماً وعدواناً وشاء الله سبحانه وتعالى أن تشمل رحمته الواسعة يوسف عليه السّلام منذ دخوله السّجن وحتّى خروجه منه بعد بضع سنين . ومن مظاهر رحمة الله تعالى بيوسف عليه السّلام الفتى أن يدخل معه السّجن رِجْلاً برجل فتيان اثنان في مثل سنّه وليس فتًى واحداً ، والمعروف أنّ المرء آلف لمن كان في مثل سنّه . ومن مظاهر رحمة الله تعالى بيوسف عليه السّلام أن يكرمه الله تعالى في السّجن بنعمة النّبوّة وها نحن أولاء أمام أولى الآيات الكريمات في السّورة الكريمة التي تدلّ على ذلك حينما أخبر الفتيين اللّذين رأيا الرّؤيا وطلبا منه عليه السّلام تعبيرها بأنّ الله تعالى منحه القدرة على إنباء الفتيين بنوع الطّعام الذي سوف يأتيهما كلّ مرّة وذلك من جنس العلم اللّدنّيّ الذي وهبه الله تعالى إيّاه . قال تعالى : ﴿ قال لا يأتيكما طعامٌ ترزقانه إلّا نبّأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما . ذلكما ممّا علّمني ربّي . إنّي تركت ملّة قومٍ لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون ﴾ ومن مظاهر رحمة الله تعالى بيوسف عليه السّلام أن يرى كلٌّ من الفتيين رؤيا وأن يطلبا منه على جهة الخصوص تعبيرهما لأنّهما يريانه من المحسنين . وقد تحقّق تأويله عليه السّلام رؤيا كلٍّ من الفتيين ، فقد خصّه الله تعالى بالقدرة على تأويل الأحاديث فكان أعبر النّاس للرّؤى . وحينما تحقّق تعبير رؤيا يوسف للفتى الخبّاز فَصُلِب وأكلت الطّير من رأسه كان في هذا التّعبير درسٌ بليغٌ للفتى الآخر السّاقي الذي عبّر يوسف عليه السّلام له رؤياه وبشّره بنجاته وعودته إلى عمله ساقياً للملك . إنّ كلّ ما قاله يوسف

عليه السّلام للفتيين صحيح . وقد دخل الفتيان السّجن مع يوسف عليه السّلام وصُلِب الخبّاز ونجا السّاقي الذي طلب يوسف عليه السّلام منه أن يذكره عند سيّده الملك ليرفع عنه الظّلم فأنساه الشّيطان ذكره عند سيّده الملك فلبث في السّجن بضع سنين . ومن مظاهر رحمة الله تعالى بيوسف عليه السّلام أن يرى ملك مصر العادل رؤيا يعجز الجميع عن تأويلها ، وفي هذه اللّحظة يتذكّر السّاقي الفتى يوسف عليه السّلام المعبّر للرّؤى وليس يوسف صاحبه في السّجن .

وفي هذا القسم من السّورة يلقي يوسف عليه السّلام أعظم درسٍ على الدّعاة إلى الله تعالى ، وهذا الدّرس هو وجوب اهتبال الدّعاة كلّ فرصةٍ مواتيةٍ للدّعوة إلى الله تعالى . فمع أنّ أهمّ غايةٍ يسعى إليها الفتيان أن يعبّر يوسف عليه السّلام لكلٍّ منهما رؤياه ، فإنّ أهمّ غايةٍ ليوسف عليه السّلام وسائر النّبيّين عليهم جميعاً صلوات الله وسلامه وسائر الدّعاة إلى الله تعالى ، أهمّ غايةٍ لكلّ هؤلاء أن يدعوا إلى الله تعالى . وهنا يستفيد يوسف عليه السّلام من حرص الفتيين على معرفة تعبير كلٍّ من الرّؤيين فيدعوهما إلى الله تعالى في أربع آياتٍ كريمات ، وفي موقفٍ من المواقف القليلة في سورة يوسف التي أفاضت الشخصيّة الحديث فيها . ونعتقد أنّ الفتيين أسلما لله ربّ العالمين وبذلك تكون النّهاية سعيدةً لكلّ منهما بإسلامه رغم أنّ الخبّاز قد قتل لأنّ النّجاة من النّار أهمّ من كلّ شيء ، بما في ذلك فقد الحياة فكيف إذا كان القتل بحجّةٍ وسلطانٍ على نحو ما حدث للخبّاز الذي كان يعمل في بلاط ذلك الملك العادل .

ويعبّر يوسف عليه السّلام رؤيا الفتيين في آيةٍ كريمةٍ واحدة ، ويطلب عليه السّلام من الذي ظنّ أنّه ناجٍ منهما أن يذكره عند سيّده الملك العادل فينسيه الشّيطان ذلك .

وإنّ اهتبال يوسف عليه السّلام كلّ فرصةٍ من أجل الدّعوة إلى الله تعالى يذكّرنا في المقابل بتقصير بعضنا في جنب الله تعالى في مجال الدّعوة حينما تقاعسنا عن الذّهاب إلى بعض الأماكن النّائية وتقديم الحقّ الذي ائتمننا الله تعالى عليه ولم يتقاعس أصحاب الباطل فشغلوا الآخرين بالباطل نتيجة تفريطنا في جنب الله تعالى .

وإنّما وصفنا ملك مصر بأنّه الملك العادل لأنّ السّاقي نجا بالعدل كما قُتِل الخبّاز بالعدل ، ولأنّ سورة يوسف وحدها في القرآن الكريم تتحدّث عن حاكم مصر آنذاك وتصفه بأنّه الملك في حين يتحدّث القرآن الكريم في سائر السّور عن فرعون مصر الطّاغية . وها هو ذا يوسف عليه السّلام ينصفه الملك العادل ، وها هو ذا عليه السّلام يصبح عزيز مصر في عهد ذلك الملك العادل وربّما أصبح عليه السّلام ملك مصر بعد وفاة الملك بسبب مجيء

لفظ العرش على لسان يوسف عليه السّلام في الآية الكريمة تمام المائة التي عُبّرت فيها رؤيا يوسف عليه السّلام ، وبسبب الإشارة إلى الملك على لسان يوسف عليه السّلام في الآية الكريمة الواحدة بعد المائة وذلك في القول : ﴿ ربّ قد آتيتني من الملك وعلّمتني من تأويل الأحاديث ﴾ .

والحقيقة أنّ ذكر الملك في سورة يوسف وذكر فرعون في سائر السّور مظهرٌ من مظاهر إعجاز القرآن الكريم ، فنحن بصدد عدل الملك وظلم فرعون ، ونحن بصدد حديثٍ في القرآن الكريم عن ملكٍ عادلٍ على عهد يوسف عليه السّلام وعن ظلم ملكٍ هو فرعون موسى عليه السّلام بعد ذلك بعدّة قرون . إنّ هذه الحقائق والدّقائق القرآنيّة نطقت بها الآثار التي اكتشفت أخيراً . فها هو ذا حجر رشيد الذي اكتشفه شامبليون في الحملة الفرنسيّة والذي حُلّتْ رموزه بعد ذلك نتبيّن فيها ما سبق أن ذكره القرآن الكريم الموحى به من ربّ العالمين . إنّ الملك العادل في عهد يوسف عليه السّلام أحد ملوك الرّعاع والهكسوس وهم غير فراعنة مصر الذين منهم فرعون موسى عليه السّلام[1] ﴿ قل ما أسألكم عليه مِنْ أجرٍ وما أنا من المتكلّفين . إن هو إلّا ذكرٌ للعالمين . ولتعلمنّ نبأه بعد حين ﴾[2] صدق الله العظيم . وإنّما كان حديثنا عن الملك هنا بسبب الإشارة إليه في الآيتين الكريمتين الأخيرتين من هذا القِسم .

« يوسف عليه السّلام يعبّر رؤيا الملك ويرفض الخروج من السّجن حتّى تثبت براءته »
الآيات (٤٣ ـ ٥٢)

شاء الله سبحانه وتعالى أن يرى ملك مصر رؤيا أفزعته ، وهي رؤيا ذات علاقةٍ بطبيعة المملكة الخصبة التي يحكمها ويجري فيها نهر النّيل أطول أنهار الأرض . لقد رأى سبع بقراتٍ سمانٍ يأكلهنّ سبعٌ عجاف وسبع سنبلاتٍ خضر قد التوت عليها وعلتها سبع سنبلاتٍ يابسات . وطلب الملك من ملئه أن يعبّروا له رؤياه فعجزوا وربّما خافوا وفرّوا إلى الزّعم بأنّها أخلاط أحلام غير صادقة واعترفوا أنّهم ليسوا بتأويل الأحلام بعالمين . وشاء الله تعالى أن يحيط ساقي الملك علماً بما جرى فقال في لهجة الواثق : ﴿ أنا أنبّئكم بتأويله ﴾ وطلب منهم

---

(١) انظر هنا ـ مثلاً ـ الصّفحات ٥٥ ـ ٥٧ من : منهج التّربية في الإسلام ، سلسلة صوت الحقّ . الشيخ محمّد متولّي الشّعراوي . القاهرة ١٩٧٦م .

(٢) سورة ص ٨٦ ـ ٨٨ .

أن يرسلوه إلى يوسف عليه السّلام وقد تذكّره ليس صديقاً له أوصاه أن يذكره عند سيّده الملك ولكن معبّراً للرّؤى . ويعرض السّاقي الرّؤيا على يوسف عليه السّلام الذي لم يعاتبه ولم يمنعه من عرض الرّؤيا والذي عبّرها له وهو المظلوم في السّجن وفوق كلّ ذلك هو لم يبخل على القوم الظّالمين بما خصّه الله تعالى به من علمٍ متعلّقٍ بالعام الخامس عشر الخارج عن دائرة الرّؤيا ! لا نستطيع تجاه هذا السّلوك النّبيل من يوسف عليه السّلام إلّا أن نتذكّر الخلق العظيم الذي فطر الله تعالى عليه أنبياءه أئمّة الهدى ومصابيح الدّجى . والحقيقة أنّنا بصدد دروسٍ عظيمةٍ في الأخلاق التي ينبغي أن يقتبس منها الدّعاة إلى الله تعالى . ويطلب الملك من خاصّته أن يأتوه بيوسف عليه السّلام الذي لديه كلّ هذه المواهب من ناحية والسّجين من ناحيةٍ أخرى بقصد أن يعرفه عليه السّلام على حقيقته . ويرفض يوسف عليه السّلام الخروج من السّجن حتّى تثبت براءته ويأمر الرّسول أن يرجع إلى سيّده الملك ويسأله : ﴿ ما بال النّسوة اللّاتي قطّعن أيديهنّ . إنّ ربّي بكيدهنّ عليم ﴾ وإنّ هذا السّؤال الأديب الأريب يقود إلى مجموعةٍ من الأسئلة تنتهي بامرأة العزيز وبالنّسوة إلى قفص الاتّهام وإلى سؤال الملك لهنّ بحضرته : ﴿ ما خطبكنّ إذ راودتنّ يوسف عن نفسه ﴾ ويعترف النّسوة وامرأة العزيز ببراءة يوسف : ﴿ قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء . قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحقّ أنا راودته عن نفسه وإنّه لمن الصّادقين ﴾ وبعد ثبوت براءته عليه الصّلاة والسّلام يخرج من السّجن . ونعتقد ـ والله تعالى أعلم ـ أنّ الآيتين التّاليتين ، الآية التي ينتهي بها الجزء الثّاني عشر والآية التي يبدأ بها الجزء الثّالث عشر ، هما من كلام يوسف عليه السّلام لأنّ معانيهما من مشكاة النّبوّة ، وأنّهما ليستا ممّا جرى على لسان امرأة العزيز التي كانت تسير في طريقٍ خاصٍّ بها وبالمترفات من أمثالها في ذلك المجتمع غير الدّينيّ ، ذلك الخطّ الذي لا يلتقي بخطّ يوسف عليه السّلام الذي آثر السّجن على السّوء والفحشاء ، والذي دخل السّجن فعلاً ، والذي أكرمه الله تعالى في السّجن بالنّبوّة وخصّه بالقدرة على تعبير الرّؤى والذي أخذ في السّجن يدعو إلى دين الإسلام لله ربّ العالمين دين التّوحيد وإفراد الله تعالى بالعبادة .

إنّ يوسف عليه السّلام هو وحده بإذن الله تعالى النّور الذي اهتدى به أهل السّجن ابتداءً ، بيئة مصر انتهاءً ، وحتّى اعتراف امرأة العزيز أمام الملك هي لم تستفد شيئاً من خلق يوسف عليه السّلام العظيم ودعوته إلى التّوحيد . فأنّى يكون لامرأة العزيز أمثال هذه المعاني السّامية في الآيتين الكريمتين . والله أعلم .